الفصل الأول

مفاهيم أساسية حول الحضارة والثقافة والدين

هذه المصطلحات الثلاثة، **الحضارة والثقافة والدين**، يمثل كل مصطلح منها الكلمة المفتاح لأى عبارة أو موضوع يرد فيه. وبرغم ما يبدو فى الظاهر من انفصال بعضها عن بعض، فإنها تشبه أشجاراً تشابكت بعضها مع بعض، ولها أيضاً ثمار مشتركة، وفروعها وأوراقها تتداخل بعضها مع بعض، وجذورها كذلك قد التفت وتداخلت معًا فى باطن الأرض. هذا التداخل والتشابك والالتفاف يتجلى بشكل أوضح إذا ما كان الحديث يدور عن دين مثل الدين الإسلامى.

ويمكننا أن نقترب أكثر من مفهوم هذه المصطلحات الثلاثة إذا ما نظرنا إليها من زاوية أخرى: النظرة الداخلية، أو النظرة من الداخل، وأى تقويم وأى حكم لدينا عن أنفسنا؟ كيف نعرف أنفسنا وما الصورة التى لدينا عن أنفسنا ونقدمها للآخر؟ شرقيًا كان أو غربيا، أمريكيا، إيرانيا، مسلمًا، مسيحيًا، ما أوجه الاختلاف أو التشابه بين هؤلاء؟ وهذه الكلمات التى تبدو بسيطة للغاية من ناحية، ومن ناحية أخرى تتسم بالصعوبة والتعقيد، «نحن» و«هم» و«أنا» و«الآخر» ماذا تعنى؟

وكما أشرت آنفًا، فإن الهدف من أفكار «هنتنجتون» واضح تمام الوضوح، فهو يقول: نحن والباقى! ويقول «كيپلينج»: نحن وأى شخص آخر! فالآخر أو الباقى فى رأيهما هو ذلك الذى لا يملك القدرة على التعبير عن نفسه أو تمثيل ذاته أو حتى تقديمها للآخرين. إننا نجد «إدوارد سعيد» يقتبس هذه العبارة الشهيرة لـ «ماركس» من الكتاب الثامن عشر لـ «برومر» و«لويس بوناپرت»، ويضعها فى مقدمة كتابه عن الاستشراق: «هم ـ أى الشرقيون ـ ليس لديهم القدرة على التعبير عن أنفسهم وتقديمها للآخرين، بل يجب أن يتم تقديمهم والتعريف بهم».

They cannot represent themselves, they must be represented.

أما عبارة «ديزرائيلى» التى اقتبسها «إدوارد سعيد» ووضعها بعد عبارة «ماركس»، فهى تحوى صراحة أكثر وتنم عن مرارة أشد: «الشرق حمَّال للأمتعة!»[1] The east is career.

وهنا علينا أن نوجه الشكر لـ «كيبلنج»، فهو على الأقل يعترف للشرق بهوية وكيان مستقل، حيث يقول فى أشعاره:

«الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا أبدًا إلا يوم أن تقوم الساعة!»[2]

أما رؤية الشاعر الألمانى «جوته» ونظرته فهى رؤية ونظرة أخرى، فهو قد سمى ديوانه «الديوان الشرقى» بينما يَعُدُّ نفسه «شاعرًا غربيًا»، حيث لديه نظرة أخرى لنفسه وللآخر، ولهذا يقول فى أشعاره:

«ذلك الذى يعرف نفسه

سوف يوجد أيضًا هنا

شرق الأرض وغربها

لم يعد قابلاً للفصل

منذ زمن بعيد وأنا فى دنيا الفكر،

أقطع الطريق مترددًا فيما بين المشرق والمغرب

ليت الرحّالة الأصلاء ينهضون أيضًا للسفر

ويقربون فيما بين الشرق والغرب».

أيضًا يقول:

«الشرق والغرب من عند الله

والشمال والجنوب كذلك».

وهذه الفكرة مقتبسة من معنى الآية الكريمة ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾

[البقرة: ١١٥].

وأيضًا يقول:

«لقد بسط الشرق والغرب مائدة نعمائه أمام أهل الفكر والنظر، حاول أن تنظر إلى اللب الذى يختفى وراء القشرة، حاول أن ترى التضامن والترابط الحقيقى المستتر وراء الفصل والانفصال، لأنك عندما تجلس على مائدة الدنيا المبسوطة، لن تستطيع أن تضع أى فرق بين الشرق والغرب»[٣]. ها هو ذا «جوته» يعلمنا هنا أننا يمكننا بنظرة ثاقبة أن نرى المفاهيم والمعانى بشكل آخر. هذه النظرة سوف تنبهنا من البداية إلى من نكون نحن؟ لماذا وجدنا؟ من أين أتينا؟ وإلى أين نذهب؟ وأى مسئولية وأى مهمة ألقيت على عاتقنا؟ وما الأمانة التى نحملها؟ إنها تلك الأسئلة الشهيرة التى طرحها «جلال الدين الرومى» وطرحها أيضًا «كانط» من بعده.

والإجابة عن مثل هذه الأسئلة توضح بشكل جلى تلك العلاقة التى تربط هذه المصطلحات الثلاثة: الحضارة والثقافة والدين. ففيما يتعلق بكُنْه هذه العلاقة، وبرغم كل ما لها من أبعاد وعمق وانتشار وتشابك وتداخل، يمكن القول إننا إذا تصورنا الحضارة جسدًا، فهذا الجسد ما هو إلا نتاج وتجميع وتراكم لجميع منجزات الإنسان المادية والتجريبية فى الحياة. الإنسان الذى خرج بخطوة تثير الدهشة والعجب من الكهوف والمغارات ليضع خطوته التالية فوق سطح القمر، وما بين الخطوتين هو نتاج هذه الحضارة التى نمثلها هنا بالجسد، إلا أن هذا الجسد لن يكون له أى معنى أو مفهوم دون روح وهوية وحياة، وروح الحضارة وهويتها وحياتها هى «الثقافة». فبدءًا من النقوش والرسوم التى صورها الإنسان البدائى على جدران الكهوف، والأغانى التى غناها، والقصص والأساطير التى رواها، والأشعار التى أنشدها، وأدوات المعيشة التى اخترعها، إلى جميع تلك المنجزات الحضارية والفكرية والحسية والعاطفية والحماسية التى أنجزها الإنسان حتى عصرنا الحاضر، هى بمثابة جسد روح، وهويته وحياته هى «المعنويات» أو «الدين». فوراء كل أثر أو عمل فنى، يتخفى ذلك التحول والتطور الذى ينم عن حس الإنسان واحتياجه الروحى للسمو والرقى. فالإنسان يرغب دائمًا فى أن يخرج عن قشرة حياته اليومية ويجد معنى ومفهومًا لهذه الحياة، يريد أن يعرف نفسه. وبتعبير إقبال يريد أن يعرف «فلسفة ذاته».

وإذا نظرنا إلى أنفسنا، تحدونا الرغبة فى معرفة الذات، فنحن مثلاً إيرانيون، وأن يكون المرء إيرانيًا مثلاً فهذا له تعريفه الخاص، فالإيرانى يعيش فى أرض محددة، ويتكلم بلغة معينة. ومن ناحية أخرى هو مسلم، وكونه مسلمًا يجعله مرتبطًا بالعالم الإسلامى، وهو أيضًا آسيوى، وكذلك شرقى.

من بين هذه الوحدات من التعريفات، نجد «توينبى» يرى أن أكثر هذه الوحدات (unit) تميزًا وتمييزًا هى وحدة الحضارة، فنحن كإيرانيين نعيش فى نطاق الحضارة الإسلامية وآفاقها. صحيح أنه من الممكن أن يعيش شخص إيرانى فى أرض أخرى، وربما تحدث بلغة أخرى غير الإيرانية، بل وحتى من الممكن ألا يكون مسلمًا أصلاً، إلا أن مجموع الخصائص والصفات التى تعطى لحياته وفكره وعاداته وتقاليده المعنى والغاية والهدف يمكن تعريفها بسهولة «بالحضارة». وهناك على سبيل المثال مفكرون أو فنانون مسيحيون لبنانيون برغم انتمائهم للدين المسيحى، فإنهم يفكرون ويتحركون فى آفاق الثقافة الإسلامية، والعربية، ولعل إدوارد سعيد يُعَدّ أصدق مثال على ذلك.

وعلى ذلك يمكن القول إنه عندما يصل الإنسان إلى نقطة التعادل والتوازن والثقة فى معرفة ذاته، عندها سوف تتضح العلاقة النسبية بين آفاق المصطلحات الثلاثة، الحضارة والثقافة والدين ونسبة كل منها إلى الأخرى. ومن أهم العبارات التى قالها «إدموند هوسرل» فى كتابه «الأزمة فى العلوم الأوروبية» عبارة اعترف فيها بوجود «التفسخ والانفصال فيما بين الحضارة والثقافة أو العلم والمعرفة»[٤] ويرى أن هذا التفسخ يعد بمثابة مصدر تهديد للغرب.

كذلك نجد «محمد إقبال» فى نقده للحضارة الغربية يركز تركيزًا شديدًا على هذا المفهوم، إنه تفسُّخٌ بين المادية والمعنوية، فعصرنا هذا، عصرُ حكيم لا تجلّى له، مسيح بلا صليب، تأبط كتابًا وجهل دور النبوة، أليس منتهى همه امتلاكَ هذا وعدم امتلاك ذاك؟ يثير فى الغرب مائة اضطراب جديد! مجنون توصل لأن يكون صانع زجاج! وفى ديوانه «بال جبريل» نجد «إقبال» يحلل نتاج الفكر الغربى وحضارة الغرب ويفسره على أنه ليس إلا تخريبًا للقلب وتعميرًا للعقل:

«الغرب هو خراب القلب، وتعمير العقل»[٥].

وكلام «إقبال» هذا يمكننا أن نفهمه جيداً من ناحية أنه كان يعيش فى أرض كانت تخضع لسيطرة الغرب واستعماره المباشر. ومن ناحية أخرى نجد «إقبال» لأنه كان فيلسوفًا وأديبًا، وأيضًا ثوريًا يناضل فى سبيل الحرية، ويعرف الغرب تمام المعرفة، حيث كان يكتب أشعاراً باللغتين الإنجليزية والألمانية، نجده قد أدرك أن الغرب كهوية جديدة بصدد تغييب المسلمين عن هويتهم أو إبعادهم عنها. ومن هنا نرى فى معرض كتاباته وأفكاره نقداً شديداً وَجَّهه للغرب.

إن ما هو جدير بالاهتمام فى تعريف هذه المصطلحات الثلاثة والظواهر التى يمثلها كل مصطلح منها، هو صعوبة هذا التعريف، وخصوصًا عندما تناقش على أنها ظواهر حية ومعاصرة وسارية المفعول. وهناك صعوبة أخرى فى هذا الأمر تتمثل فى هذا العالم المعاصر الذى نعيشه، ذلك العالم الذى يتحدثون عنه على أنه بمثابة «قدر إذابة» (Melting Pot). أما الصعوبة الثالثة فتتمثل فى كوننا نحن سواء كنا كتابًا أو قراءً لم نجلس فى هذا العالم لمجرد المشاهدة، بل إننا مشتركون بالفعل فى هذه اللعبة، ونريد أن يكون لنا دور فى مجريات الأمور، حتى وإن كان دوراً محدوداً أو مختصراً، أو كما يقول «صمد بهرنگى»(*) فى حدود لمعان برقة مضيئة فى قلب الظلام. فالحضارة والثقافة والدين ليست بالظواهر أو القضايا البسيطة، وليس الإنسان كذلك مجرد مراقب أو مشاهد لا أثر له فيها.

منذ سنوات وفى أثناء وجود حكومة طالبان فى أفغانستان، ووجود حكومة أربكان فى تركيا، تنبه أحد الكتاب إلى موضوع مهم وهو أن إيران يحكم فى غربها إسلام أربكان وفى شرقها يحكم إسلام طالبان، والفرق واضح بين إسلام أربكان وإسلام طالبان. بمعنى أننا نواجه تنوعًا شديداً داخل الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية وفى طريقة فهمنا للإسلام.

بهذه المقدمة ومع هذه النظرة، يصبح من الضرورى علينا الآن أن نعرّف الحضارة والثقافة والدين.

من الواضح أنه بعد هذه المقدمة التى طرحناها أصبح من العسير أن ننتظر تعريفًا جامعًا مانعًا وقاطعًا لهذه المصطلحات الثلاثة. فالتعريف فى الواقع ليس كمثل ضرب

(*) صمد بهرنگى (١٩٣٩ ـ ١٩٦٨م) من أبرز الكتاب الإيرانيين المحدثين فى قصص الأطفال.

السكة والنقود، حيث يذاب المعدن ويكون جاهزاً للتشكيل بسهولة ويسر، ونستطيع أن نطبع عليه ما نريده من كتابات ونقوش. وفيما يتعلق بتعريف الحضارة علينا أن ننتبه إلى النقطة التالية:

«إننا إذا قمنا بمقارنة تعريف الحضارة بمثل التعريف السطحى لدى صموئيل «هنتنجتون» بتلك التعاريف الدقيقة العلمية التى طرحها «توينبى» الذى عاش قبله بنحو نصف قرن، فسوف يتضح لنا مدى ما وصل إليه هذا التعريف من انحطاط على يد «هنتنجتون»[٦] فكما أشار الدكتور أحمد صدرى، فإن مصطلح الحضارة أو مفهوم الحضارة فى رؤية «هنتنجتون» ونظرياته قد تم تقييده، أو على الأقل تعرض للتدهور والانحطاط مقارنة بما حازته هذه الكلمة من تراث واسع فى آفاق البحث العلمى.

يَعُدُّ «توينبى» فى مقدمة كتابه الكلاسيكى «دراسة فى التاريخ»[٧]، الحضارة هى وحدة البحث فى التاريخ، وهذا فى حد ذاته يحظى بأهمية كبيرة من زاوية المنهج الذى اتبعه فى بحثه فى التاريخ بالمقارنة بمنهج «هنتنجتون» فى كتاباته وأبحاثه. ويبدو «هنتنجتون» وكأنه حاول أن يطرح نظريته فى عجالة على أساس بعض الوقائع التاريخية بينما نجد أن «توينبى» قام من خلال دراسة شاملة لها من العمق والتوسع ما هو جدير بالملاحظة، بتوضيح مفهوم الحضارة، وكذلك علاقة الحضارات المختلفة بعضها ببعض أو تقابلها بعضها مع بعض. والنقطة المهمة للغاية والتى يمكن أن تكون فاتحة الطريق فى دراسة العلاقة فيما بين الحضارة والثقافة والدين، هى تلك النسبية التى طرحها «توينبى» فيما بين الحضارة والعلم والرواية، لقد كانت نظرته إلى الرواية والأسطورة أبعد بكثير من أن تكون نظرة سطحية عادية. فقد رأى الأسطورة والرواية فى الواقع روح الحضارة المشكلة والمكونة لهويتها. وهو المفهوم نفسه الذى طرحه عن «الدين» فى كتابه ذلك. ومن المهم أن نورد هنا بعض الأمثلة لما ذكره «توينبى» فى ذلك الكتاب:

«ثمة ثلاث مراحل مختلفة لتسجيل موضوعاتنا الفكرية، أو بعبارة أخرى للتعريف بالموضوعات التى نفكر فيها والتى تُعَدُّ ظاهرة الحياة الإنسانية من بينها. أول مرحلة من هذه المراحل الثلاث تتمثل فى البحث عن الوقائع والأحداث وتسجيلها. أما المرحلة الثانية فنقوم فيها بتفسير هذه الأحداث وتوضيحها بعد أن نكون قد سجلناها كما هى بما يحكمها من قوانين وقواعد عامة وشاملة. وتأتى المرحلة الثالثة وهى إعادة صياغة

الأحداث والوقائع وخلقها فنيًا فى شكل وإطار قصصى. وفى الغالب يُفترض أن يكون بحث الوقائع والأحداث وتسجيلها عمل التاريخ، والنظرة من هذه الزاوية هى فى الواقع دراسة اجتماعية للحضارة. أما تفسير القوانين العامة أو النظريات العامة وصياغتها أيضا فهو منهج العلم ويتكفل العلم بالقيام بهذه المهمة.. والرواية والحكاية هما أيضا منهج أو أسلوب يتم من خلاله دراسة العلاقات الشخصية والنفسية للإنسان. وكل هذه الموضوعات هى فى الواقع الكليات أو العموميات نفسها المعروفة التى قال بها «أرسطو».

وحول تداخل هذه المفاهيم والأساليب والمناهج واختلاطها، يسوق لنا «توينبى» مثالاً بأسطورة «الإيلياذة» التى كتبها «هوميروس»، ويوضح لنا كيف يختلط الواقع والأسطورة أو الحكاية ويتداخلان معًا.

«عندما يقرأ أحد الإيلياذة على أنها نوع من التاريخ، يدرك أن هذا التاريخ ملىء ومفعم ومترع بالحكايات والأساطير، وإذا قرأها على أنها قصة أو أسطورة فسوف يراها مليئة بالتاريخ».

من هذ المنطلق نجد «توينبى» يعتمد على الفكر والحس الجمعى للشعوب، وكأنه يرى أن هذه الشعوب ما هى إلا مؤرخ عظيم، ومن المحتم أنها أديب عظيم، وقصاص بارع أيضا[٨].

ويمكننا أن نقترب بشكل أكثر من أفكار «توينبى» على بعد آخر، أليس القرآن الكريم أو الكتاب المقدس ـ العهد القديم والعهد الجديد ـ نصوصًا دينية ومقدسة؟ لكننا نرى فيها تأكيدًا على القصص، فالقصص والروايات والحكايات وردت فيها بشكل واسع ومتكرر. فالقصة أو الرواية ماهى إلا غلاف يحمل داخله بذرة المعنى والروح.

بعد هذا التوضيح يمكننا أن نصدر حكمنا على مصطلح «صراع الحضارات» فنبين إلى أى مدى كان اختياره متسرعًا وسطحيًا. فهل حدثت بالفعل حرب فيما بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية؟! إذن لماذا نجد مفكرين يعدون فى الواقع ممثلين حقيقيين للغرب من أمثال: نعوم تشوميسكى وهنرى ميلر وزونتاك الأمريكيين، وهانس كونج وهابرماس وهيلموت أشميت الألمان، وإمبرتو إيكو الإيطالى، وغيرهم،